

الرضاعة في التراث

(لبن الأم)

تسنى لدي أن... (رضعت)، مثلي ومثل غيري من المواليد، من أبناء المزارعين... في زمان كانت تطلع فيه الشمس من مشرقها... وتغيب فيه حيث تغيب، غرباً، كما هي عاداتها... رشفت من نبع الأمومة الدافق... لبناً وافراً، إلهياً سائغاً، شهياً، خالصاً، طيباً، وحلالاً.. (وبدون مقابل)، يعني... (مجانياً) ... وبمقادير محكمة التناسب... لم أستخدم في ذلك (البزة) ... أو الملعقة ... أو أية آلية منزلية أخرى، متوافرة، كوسيط... يمثل حائلاً بيني وبين ثدي أمي... حتى بلغت السن التي نبتت فيها اثنتان من أسناني الأمامية، (القواطع) ... وأصبحت أدرك معنى (كجا) بالجيم المعطشة، والتي تعني العض على ثدي الأم... مما أدى بذلك الفعل المتعمد، لأن يكون بداية جادة نحو فطامي... دون السن المحددة، وهو ذاته ما يعنيه المثل العربي:

(وعلى نفسها جنت براقش)

ولمزيد من المعرفة، ف.. (براقش) كلبة لقوم... كانوا فارين من خصوم لهم، وكانت تتبعهم كلبتهم تلك... حتى أودى بهم المسير إلى مخبأ آمن... احتواهم بكاملهم حتى كلبتهم (براقش)... مر بمخبئهم من يلاحقونهم وقد كادوا يخطئونهم، لولا نباح (براقش)... التي مكنتهم من معرفة مخبئهم، فهجموا عليهم وقتلوه، وقتلوا (براقش) معهم...

من بعد أن تعلمت الجلوس (قاعداً) على الأرض... أتناول بعضاً من ذرا التراب الطيني الوافر من حولي، والناعم في ذات الوقت... وهو الفعل الذي قادني كي أمارس (مص الدرّاب) في أيام قادمات... إرثاً وتقليداً لبعض النساء (الحاملات)، اللاتي يفتشن عن ذلك المدعو (الدرّاب)... من بين حبيبات الذرة في داخل جوالات (شوالات) العيش...

عادة يتم تعلم جلوس الطفل على الأرض، تحت إشراف لصيق من ذويه، باستخدام (الوسائد) و(المخدات)... وما توافر من مقتنيات أخرى من الملابس... كبقايا الأثواب البالية، مثل: (توب الزراق.. أو توب الكرب.. أو الفرقة.. أو الشملة.. أو القرقاب.. أو العرايق الرجالية أو العرايق النسائية)... أو تلك الملابس التي لا تصلح ل..(المرقعة)، وقتنذ... وغيرها من الأنواع التي عبت بها الأيام كثيراً... فصادرت رونقها، وعلمتها حكمة (الصبر على المكاره)...

من بعدها (حبوت) وعلى أربع تحركت... حينما آثرت الانحناء عوضاً عن الجلوس... وجاشت بنفسى أهواء التنقل...فصرت أرتكز على أطرافي الأربعة... أسوة بصغار الثدييات الأليفة من حولي...مثل:

(الكدايس..والسخلات..والعتان..والحملان..)

حيث استخدمت، وبلا معرفة أو إدراك، محتوى النظرية العلمية، التي تحدد مركز الجاذبية الأرضية الصحيح... والذي دائماً ما يتوسط الأجسام... ليساعدها على الاتزان المنشود... والذي تطلق عليه (ملة الخواجات)...(CENTRE OF GRAVITY) ...

كانت (الحبابة) عندي، وعلى ما أظن، تمثل انتصاراً كبيراً في التوجه نحو مرافئ الحرية... والانعتاق من قيود المكان...فكانت كل خطوة رباعية عندي، تهفو كي تنغمس بكلياتها، في خضم الفرح، والتطلع، لقطع مسافات أكثر طولاً وأكبر اتساعاً... وهي مخلوطة بالابتسامة.. والشهيق.. والهمهمة، التي توحى بنشوة الانتصار..

ثم (وقفت) محاكياً لغيري من الناس، في دائرة محيطي المحدودة... تلك الوقفة (المهزوزة) المعهودة... حيث لم تنضج بعد خلايا (المخيخ) لتؤدي وظيفتها الأساسية...وهي (الوزنة الصحيحة) والاستقامة عند الوقوف أو التحرك...والتي تحتاج إلى كثير من التمارين والمساندة...تحت إشراف المدربين الأسريين من الكبار أو الصغار...كانت لحظة الوقوف عندي... كما روي لي، وكما شاهدته عندما غدوت كبيراً... عند الأطفال الذين يتطلعون للوقوف...

كان يشوب تلك الوقفة ويتخللها، الخوف من السقوط، الذي لا زال يلازمنا حتى الآن... والذي غالباً ما ينتهي بصرخة استغاثة أو ابتسامة مفتعلة... يملأها الخوف والحذر... يطلقها الطفل، منصّباً يديه كجناحين يعوزهما الريش، كي يحفظ ماء وجهه أمام المدربين...

و(مشيت) يشد من أزري (العنقريب)... الذي ساعدني كثيراً وأنا أتصارع و تجربة (الوقوف) القاسية تلك... وتحريك الرجلين إلى الأمام... الواحدة بعد الأخرى، وهكذا مشيت متلكناً عبر (المتاتاة) بمساعدة شخص أو شخصين، كبيرين أو صغيرين... يمسكان كلنا يدي وهما يرددان :

تا... تا...

يا تا... تا..

تا... تا...

لبن أمك حلو...

ولا مي.

تشير أهزوجة (المتاتاة) هذي... إلى أهمية الرضاعة وفائدة لبن الأم... و (المي) هي الماء... ويعني ذلك... (لبن الزمن دا.. النصو موية.. ونصو بنسولين.. أصلو ما نافع)... في توفير القوة، والبنية الصحيحة، للأطفال الرضع....

حدثوني عندما كبرت، كيف كانت خطواتي ثابتة بعض الشيء... فأدركت ساعتها أن لبن أمي لم يكن (مي)... فحمدت الله على ذلك...